قوله:

أَوَّلُ وَاجِـــبٍ[1] عَلَـــى مَـــنْ كُلِّفَـــا[2] مُـــــمَكَّنًا مِـــنْ نَظَـــرٍ أَنْ يَعْـــرِفَا

اللهَ وَالرُّسْـــــــلَ بِالصِّفَـــــــاتِ مِـمَّـــا عَلَيْـــهَا نَصَـــبَ الآيَـــاتِ

أخبر أنّ أوّلَ ما يـجب علـى الـمكلّف وهو العاقل البالغ[3] فـي حـال كونـه متمكّنًا مـن النظـر هـو: معرفة الله، ومعرفة رسله عليهم الصّلاة والسّلام بالصفات التي نصب الله تعالـى عليها الآيـات، أي أقـام عليها الأدلّة والبراهين، إذ الـجهل بالصفة جهل بالـموصوف.

وإنّمـا قال: (مُـمَكَّنًا مِن نظر) ليحترز به عن الـمكلّف إذا لـم يتمكّن من النظر لـمفاجأة الـموت لـه عقب البلوغ[4]، فلا تـجب عليه الـمعرفة، إذ لا يُتوصّل لـها إلّا بالنظر، والفرض أنّه لـم يتمكّن منه.

---

(1) (أوّل واجب) قيّده بعض الشُّرَّاح تبعًا للصغرى بقوله: (شرعًا) للرّدّ علـى الـمعتزلة القائلين: إنّ وجوب الـمعرفة علـى كلّ مكلّف بالعقل، والـمراد بالشرع: بعثة أحد من الرسل، لا الأحكام الشرعيّة، وهو قيد ضروري الذِّكْر كمـا فـي شرح الكبرى.

(2) (علـى من كُلِّفَا) أي ألزم ما فيه كلفة من فعل أو ترك، ودخل فيه الإنس والـجنّ والـملائكة علـى خـلاف فـي هذا. وأوّل الـجن علـى المشهور إبليس -لعنه الله-، وهو مكلّف بسمـاع كلام الله، ومن بعده إمّا بسمـاع كـلام الله، أو بخلق علم ضروريّ فيه، أو بوصول دعوة رسل الإنس إليه، وأمّا الـملائكة فمكلّفون من أصل الـخِلقة بسمـاع كـلام الله، أو بخلق علم ضروريّ فيهم، أو بإرسال بعضهم إلـى بعض، فتوقّف التكليف علـى إرسال الرسل إنّمـا هـو فـي الإنس، فقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15] عامّ مـخصوص. انظر يس.

(3) قوله: (وهو العاقل البالغ) هذا خاصّ بالنوع الإنسانـيّ دون الـجنّيّ والـمَلَكِيّ؛ فإنّهم مكلّفون بأصل الـخِلقة.

(4) قوله: (لـمفاجأة الـموت له عقب البلوغ) أو طُرُوِّ إغمـاء أو جنون إلـى الـموت.

(والرُّسْلَ) سكت عن الأنبياء وإن كان حكمُهم حكمَ الرُّسُل فيمـا ذكر نظرًا للأحكام الآتية، فإنّها خاصّـة بالرّسـل، أو مراعاةً للقول بالترادف بينهمـا.

(بالصفات) قال فـي ك: جمع صفة، والصفة والوصف بمعنى واحد عند أهل العربيّة، وأمّا عند الـمتكلّمين: فالوصف: قول الواصف، والصفة: الـمعنى القائم بالـموصوف، وهو الـمراد هنا اهـ.

وما ذكره من كون الـمعرفة هي أوّل واجب هو أحد الأقوال في الـمسألة(1)، ونسب للشيخ الأشعريّ.

وقيل: أوّل واجب النظر(2)، وهو مذهب جماعة، منهم: الإمام الأشعريّ أيضًا. فله إذًا قولان.

وقيل: أوّل واجب القصدُ إلى النظر، أي توجيه القلب إليه بقطع العلائق الـمنافية له(3)، وهو مذهب الأستاذ وإمام الـحرمين.

وقال القاضي: أوّل واجب أوّل جزء من النظر(4).

= فقوله: (بالصفات) أي بشأنها، فيشمل الصفات الواجبة والـجائزة في حقّهما، وانتفاء الصفات الـمستحيلة، وإطلاق الصفة على الأمر الـمستحيل قيل: مـجاز؛ لأنّه عدم، والصفة عبارة عن الـمعنى القائم بالـموصوف كما مرّ، وقيل: حقيقة؛ لأنّ الصفة كما صرّحوا به ما لا يقوم بذاته، وصرّحوا بأنّ زيدًا يتّصف بالعمى وإن لم يكن العمى نفسُه موجودًا في الـخارج.

(1) قوله: (هو أحد الأقوال في الـمسألة) أنهاها الزركشيّ في شرح جمع الـجوامع إلى أحد عشر قولا، اقتصر على أربعة منها تبعًا لابن السبكيّ، وجه هذا القول: أنّ معرفة الله أساس جميع العبادات، إذ لا يصحّ بدونها واجب ولا مندوب.

(2) قوله: (النظر) أي الـمؤدّي إلى الـمعرفة؛ لأنّه مقدّمتها.

(3) قوله: (بقطع العلائق الـمنافية له) أي كالكِبْر، والـحسد، والبغض للعلماء الداعِين إلى الله.

(4) قوله: (أوّل جزء من النظر) أي لتوقّف النظر على أوّل جزء من أجزائه، وعَزْوُ هذا القول للقاضي أبي بكر اعترضه الكمال بن أبي شريف بأنّه مـخالف لما في الـمواقف وشرحه وشرح الـمقاصد من أنّ القاضي قائل: أوّل واجب القصد إلى النظر.

ثمّ هذا الـخلاف لفظيّ كما أشار له الإمام في الـمحصول، وحاصله: أنّ من نظر إلى الـمقاصد فقط قال بالأوّل، ومن نظر إلى الوسائل وراعى الوسيلة القربى الـمفضية إلى الـمقصود مباشرة قال بالثاني، ثمّ من نظر إلى أنّه ذو أجزاء مترتّبة والـمتّصف بالأوّليّة حقيقة هو أوّلها قال: أوّل الواجبات أوّل جزء من النظر، ومن نظر إلى مطلق الوسائل الـمفضية إلى الـمقصود بالذات ولو بواسطة قال: أوّل الواجبات القصد إلى النظر................... =

= والقول الذي درج عليه الناظم مشكل بأنّ الـمقرّر فـي الأصول أنّه لا تكليف إلّا بفعل اختياريّ والـمعرفة ليست اختياريّة، بل ولا بفعل، وإنّمـا هي بمعنى العلم واليقين، فهي كيفيّة نفسانيّة تـحصل بالنظر، فالصواب أنّ التكليف بها تكليف بسببها الـمؤدّي إليها، وهو النظر، إذ هو مقدور الـمكلّف، فيكون هو أوّل واجب، ولـهذا كثـر البحـث عليـه فـي الكتاب والسنّة حتّى كأنّه مقصود لذاته، قال تعالـى:

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَـى السَّمَـاءِ فَوْقَهُمْ} الآية [ق: 6].

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَـى الْإِبِلِ} [الغاشية: 17].

{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِـي السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: 101].

{وَفِـي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21].

ففي عينك وأنفك ورأسك وظهرك وفقراتك وصدرك وما احتوى عليه باطنك من عجائب التشريح ما تصل بـه إلـى معرفة ربّك.

ففي الـحديث: (جَعَل لابن آدم الـملوحة فـي العينين؛ لأنّـهمـا شحمتان، ولولا ذلـك لـذابتا، وجعـل الــمرارة فــي الأذنين حجابًا من الدوابّ، فمـا دخل الرأسَ دابّةٌ إلّا التمست الوصـول إلــى الـدماغ، فـإذا ذاقـت الــمرارة طلبـت الـخروج، وجعل الـمنخرين يستنشق بهمـا الريح، ولولا ذلك لأنتن الدماغ، وجعل العذوبة فـي الريق يـجد به طعـم كلّ شيء).